

حديث اليوم حول الجامعة المصرية

يدور بعض الناس حول الجامعة المصرية منذ حين يتهمها فى وطنيتها ودينها وإخلاصها للعلم ويستعدى عليها الناس وينذر مصر بالخطر الداهم والشر المستطير لأن الجامعة المصرية فكرت فى أن تكون جامعة مصرية وأرادت أن تؤدى واجبها فى هذه البلاد كما تؤدى الجامعات الأخرى واجباتها فى البلاد الأخرى .

نعم يدور بعض الناس حول الجامعة ويتهمها بكل هذه المنكرات لأنها فكرت فى أن تدعو أستاذا فرنسيا ليلقى فيها محاضرات حول الآداب العربية أو حول فقه اللغة العربية. فكرت الجامعة فى ذلك فهمى تتهم فى دينها ووطنيتها، تتهم بالردة وتتهم بالخيانة العظمى . وليس ذلك غريبا فليس فى مصر شيء غريب

ونحن نخشى أن يصل مثل هذه الأوهام إلى قوم ليس لهم صلة بالجامعة فيسيئون الظن بهذه الجامعة أو يخطئون فهم ما تعمل الجامعة وما تريد . لهؤلاء وحدهم نكتب هذه الكلمة .

لم تكد تنشأ الجامعة حتى شعر مجلس إدارتها وعلى رأسه يومئذ صاحب الجلالة المصرية بان هذه الجامعة لا تستطيع أن تعيش ولا تستطيع أن تنهض اذا اكتفت بالعلماء المصريين والأساتذة المصريين ، وبأنها إنما أنشئت لتكون صلة فى العلوم العالية بين مصر وأوروبا ، شعروا بذلك فاعتزموا أن يدعوا أساتذة أوروبا إلى هذه الجامعة ، ولم تفتح الجامعة دروسها حتى كان من بين أساتذتها ثلاثة من الأوربيين فى قسم الآداب : أستاذ للآداب الإنجليزية وأستاذ للآداب الفرنسية ، وأستاذ إيطالى هو السنيور جويدى للآداب العربية أو قل كما قالت الجامعة يومئذ لا آداب الجغرافيا والتاريخ . وقد القى هذا الأستاذ الجليل دروسه باللغة العربية وكان ازدحام الناس على هذه الدروس شديدا أو إعجابهم بها أشد .

فلما كانت السنة الثانية دعى إلى الجامعة مكان هذا الأستاذ الذى اعتذر لتقدمه فى السن أستاذ إيطالى آخر هو الأستاذ نللينو فألقى دروسه فى تاريخ الفلك عند العرب . فلما كانت السنة الثالثة نظم قسم الآداب فى الجامعة ودعى إليه أستاذان إيطاليان أحدهما الأستاذ نللينو لدرس تاريخ الآداب العربية . والآخر الأستاذ مليونى لدرس تاريخ الشرق القديم . ودعى أستاذ ألمانى هو الأستاذ ليتمان لدرس اللغات السامية . ودعى أستاذ إيطالى آخر هو الأستاذ سانتلانا لدرس تاريخ الفلسفة . كان هؤلاء الأساتذة الأربعة يلقون دروسهم باللغة العربية وكان الأزهريون يختلفون إلى هذه الدروس فيعجبون بها الإعجاب كله كما كان الأساتذة يعجبون بتلاميذهم الأزهريين ، حتى لقد ذهب الأستاذ سانتلانا إلى رئيس الجامعة وقال

له : إذا كنت تريد أن تنجح الجامعة حقا فاعن الأزهرين على إن يختلفوا إليها ويتخصصوا لها . ثم كانت الحرب وانقطعت الصلة بين الجامعة وأوروبا . انقطعت هذه الصلة بعد أن اختلفنا في الجامعة إلى أساتذة من الفرنسيين والإيطاليين والألمان درسوا لنا آداب العرب وفلسفتهم وتاريخهم ودرسوا لنا اللغات السامية درساً نعتزف بأننا لم نشهده في مصر وبأننا ما زلنا بعيدين عن أن نشهده في مصر، وبأن واجب الجامعة المصرية وغير الجامعة المصرية هو أن تقرنا من هذا اليوم الذى نجد فيه أساتذة مصريين يدرسون على نحو ما يدرس الأساتذة الأوروبيون .

انقطعت هذه الصلة أثناء الحرب واكتفت الجامعة بأساتذة من المصريين منهم بعض علماء الأزهر ومنهم غير علماء الأزهر من رجال العلم ، ويسوئنا أن نسجل أن القيمة العلمية للجامعة ضعفت ضعفا شديدا أحسه الطلبة وأحسه الأساتذة انفسهم وأحسه أعضاء إدارة الجامعة وأحسه الناس من حول الجامعة فكانوا جميعا يأسفون ويتمنون أن تعود الجامعة إلى سنتها القديمة . ثم انتهت الحرب وعاد إلى الجامعة نفر من أبنائها الذين درسوا في أوروبا فآخذوا يدرسون في الجامعة ولكنهم لم يتعلموا الغرور في أوروبا وإنما تعلموا فيها الشعور بأن اليد الواحدة لا تستطيع أن تصفق وبأن الجامعة لن تنهض ولن تعيش إلا اذا استعانت بأساتذة أوروبا وكانت صلة متينة بين مصر وبين البلاد الأوروبية . فآخذ كل واحد من هؤلاء الأساتذة يلح في أن تستعين الجامعة بأساتذة من الأوروبيين فى المادة التى يدرسها هو ، واكثر الأساتذة من الإلحاح ووضعوا لذلك نظاما مكتوبا لو نفذ لكانت الكثرة فى أساتذة الجامعة الآن يلحون فى تنفيذ هذا النظام .

و يتمنون على الله وعلى جلالة الملك وعلى الحكومة المصرية أن تزال العقبات المادية التى تحول بين الجامعة وبين تنفيذ هذا النظام .

أساتذة الجامعة إذن ومجلس إدارتها متضامنون فى الرغبة فى دعوة الأساتذة الأوروبيين بكثرة إلى الجامعة المصرية، وقد عرض نظامهم الجديد على صاحب الجلالة ففضل بالوعد بأنه سينظر فيه وسيشمله بتأييده الكريم. وفى أثناء هذا كله علمت أن الأستاذ بول كازانوف الذى يدرس اللغة العربية فى أكبر معهد علمى فرنسى هو «الكوليج دى فرانس» (College de France) والذى اختلفت أنا إلى دروسه فى باريس أربع سنين قد يزور مصر فى الشتاء المقبل لعمل له فى المعهد الأثري الفرنسى وفى آثار الفسطاط . فاقترحت على مجلس الأساتذة أن تنتهز الجامعة وجود الأستاذ فى مصر لتطلب إليه إلقاء طائفة من المحاضرات فى مناهج البحث عن فقه اللغة وآدابها. وقبل المجلسان هذا الاقتراح وكتبت الجامعة إلى الأستاذ فأجاب معتنرا بأن زيارته لمصر فى الشتاء المقبل ليست محققة وهى إن تحققت فقد تستغرقها أعماله التى يجئ من أجلها، ولكنه وعد بأن يتحدث إلى الجامعة فى تنظيم طائفة من المحاضرات يقف عليها جهده فى سياحة خاصة

فى السنة المقبلة. ووقف الأمر عند هذا الحد. اترى إلى هذا الخطر الداهم الذى تتعرض له مصر فى كرامتها وغلماها ودينها ووجودها السياسى ؟

أريد أن يعلم الناس جميعا إن الجامعة المصرية حين تدعو أساتذة من أوروبا لإلقاء الدروس فيها لا تأتى بدعا من الأمر وإنما تنهج فى ذلك نهج الجامعات الأوروبية والأمريكية الكبرى التى تتقارض الأساتذة وتتبادل المعلمين فى كل عام دون أن تجد فى ذلك غضاضة أو مسا للكرامة القومية ودون إن تجد فى ذلك شيئا غير النفع العلمى الخالص الذى إنما أسست الجامعات له حتى أن الأساتذة الألمان ليدعون إلى فرنسا وإن الفرنسيين ليدعون إلى المانجا فى هذه الأيام وأريد أن يعلم الناس أن الجامعة المصرية حين تدعو الأساتذة الأوروبيين لا تأتى بدعا من الأمر وإنما تستأنف سنتها القديمة التى قامت عليها وانتفعت بها ونفعت بها كثيرا. ثم أريد أن يعلم الناس أن هذا الأستاذ الذى دعتة الجامعة إليها فاعتذر ليس رجلا عاديا وإنما هو أستاذ حقا وأستاذ فى اللغة العربية فقها وأدباها، ولقد أريد أن يعلم الناس انى سمعت هذا الأستاذ يفسر القرآن الكريم تفسيراً لغويا خالصا فتمنيت لو اتيح لمناهجه أن تتجاوز باب الرواق العباسى ولو خلسة ليستطيع علماء الأزهر الشريف أن يدرسوا على طريقة جديدة نصوص القرآن الكريم من الوجهة اللغوية الخالصة على نحو مفيد حقا . وأريد أن يعلم الناس أن هذا الرجل يخدم مصر فى تاريخها وأدباها خدمة لو قام بجزء منها نفر منا لكنت أول من يكبرهم ويدين لهم بالإجلال . يضع كتابا قيما عن تخطيط مدينة الفسطاط ، وقليل منا من يعنى بمدينة الفسطاط ويعرف موقع مدينة الفسطاط . . . يترجم الى اللغة الفرنسية خطط المقريزى وقليل جدا منا من يقرأ خطط المقريزى . ثم يعد للنشر كتابا لإمام من أئمة الحديث استكشف منذ سنتين فى إدفو على ورق البردى ولم يسمع به أحد من أولئك الذين يخشونه على مصر .

أحب أن يعلم الناس أن الجامعة المصرية معهد للدرس الحديث يجب أن تظل أبوابها ونوافذها مفتوحة ليكون فيها الهواء طلقا حرا ملائما للرأى الحر والرقى الحديث . فإذا كان فى مصر قوم يريدون أن يدرسوا والأبواب والنوافذ مغلقة من دونهم فدونهم معاهد التعليم على النحو القديم . على أن هذه المعاهد تفتح أبوابها بعض الشيء فى هذه الأيام فإن كانوا فى حاجة إلى الظلمة فليغلخوا ما فتح من هذه الأبواب .

طه حسين

السياسة، ٢٩ أغسطس ١٩٢٣ .